الحزينة في مدينة « نينوى » ? ما عليّ الا ان اعيش مستقلاً . وهذا أكبر النعم ونهاية الارب . سوف لا أكون في حاجة الى ذرع الارض رواحاً وجيئة على ابواب اهل البلاط والحاكم . سوف لا احسد احداً ، وسوف لا يحسدني احد . وكل هذا سهل هين . سيكون لي اصدقاء ، ولسوف احافظ على صداقتهم ، بأن لا اجعل سبباً للاختلاف معهم على شيء . سوف لا اوجه انتقاداً الى شيء يفعلونه او كلام يقولونه . وكذلك هم سوف يعاملونني . اية صعوبة في ان يلزم الانسان هذه الخطة ، وان ينهج هذا النهج » ؟

ولم يكد « ممنون » يرسم هذه الخريطة الجميلة في مخيلته ، حتى أطل من النافذة فرأى امرأتين تمشيان تحت أشجار الشارع بقربة من بيته . وكانت احداها عجوزاً تسير الهوينا بغير اكتراث ، أما الاخرى فكانت شابة في عنفوانها ، وعلى مظهرها ما ينم على كثير من الانفعال . فكانت ترسل التنهدات ، وتجود بالدمع الهتون ، فكانت في حالها تلك ، في تنهدها ودموعها ، أكثر جمالاً منها في سكونها وهدوئها . غير ان الفيلسوف مُسَّ شيئاً ، لا بالمرأة ، فانهُ كان قد عاهد نفسه على ان لا يكون فريسة لمثل هذه الحالات ، ولكن بحالة القنوط والهم التي بدت عليها . فانحدر من السلم وتقدم الى « النينوية » الجميلة ، على أمل ان يهدىء روعها بالحكمة ويكبح جماح انفعالها بالفلسفة . فقصت عليه ، بكل ما تخيل من سذاجة وطيبة قلب ، ما أصابها من المصائب على يد عمٍ تخيلته تخيلاً ، وكيف حرمها من ثروة طائلة ما حلمت بها يوماً ، ورووت لهُ ما كان من قسوته وما لقيت من جبروته وهماً وكذباً ، وما كان لها من عم ، وما كان لها من ثروة ، وانما كان لها خيال خصب بصور الحوادث ، فيرويها لسان كان تحته هاروت ينفث فيه السحر الحلال

قالت « أتخيل أنك رجلاً أصاب من الحكمة وأفاد من الفلسفة . فلو أنك تفضلت وقدمت الى منزلي ، اذن تستطيع أن تنقذني من الورطة التي أجد نفسي فيها وتخلصني من المأزق الذي ترديت فيه »

فلم يتردد ممنون في ان يتبعها ، ليبحث امرها من وجهة فلسفية صرفة ، وان ينصح لها بأقوم سبيل يمكن ان تخطه الفلسفة

وهنالك في منزلها اقتادتهُ تلك الفاتنة الى حجرة ينبعث منها الطيب ويشيع في

جنباتها المطر ، وطلبت اليه في أدب واحتشام ان يجلس بجانبها على اريكة مقتبلة اياه بوجهها ، كما لو يكون قد تأهبا لمعركة سلاحها الكلام والنقاش . فهي في شوق لان تقص قصتها ، وهو في شوق لان يسمع سرا تلك القصة . ومضت السيدة تتكلم غاضّة من بصرها ، مشيحة بوجهها نحو الارض ، مرسلة بين آونة وأخرى بالدمعة في إثر الدمعة ، زافرة بالتنهدة في إثر التنهدة ، وكانت ترفع عينها الى من تتكلم حيناً بعد حين ، فلا تقعان الا على عيني « ممنون » الفيلسوف مركوزتين في عينيها . وكان حديثهما حديث الصديقين ملأ كل منهما الإشفاق والحب لصاحبه ، اما هذه الصداقة وذلك الحب فأخذا يزيدان شيئاً بعد شيء ، كلما التقى الناظران ، وتخاطبت العينان . ولقد اهتم « ممنون » بحديثها كل اهتمام ، وبدأ يشعر بأنه أكثر ميلاً الى الاخذ بيد هذه المخلوقة التي جمعت بين العفة والبؤس ، كلما مرّ الوقت على مجلسه واياها ، كان دقائق الزمن تدور في قلبه ، لا مع الأجرام

من ذا الذي يمكن أن يدخل الى الحجرة التي جلسا فيها يتباثان : هي بالشكوى وهو بالنصيحة ؟ من تخيل ان يقتحم باب ذلك النسك المقدس ؟ من تتصور سوى العم الذي كانت منه الشكوى . العم الذي هو سبب البلوى وأصل المصيبة . وكان مدججاً بالسلاح من فوق رأسه الى اخمص قدميه ، وقال اول ما قال انّ من حقه الآن ان يضحي بكليهما ، بالفيلسوف ممنون ، وبابنة اخيه . اما هي ففرت هاربة ، ملقية في روع الفيلسوف ان عمها من شأنه العفو ، ومن خلاقه الغفران ، تلقاء بدرة من المال يسربها جيبه . فاضطر « ممنون » ان يشتري نفسه بكل ما كان بين يديه . وكان من حسنات تلك الأيام ان الناس كان في مقدورهم ، بمثل هذه الوسائل ان ينجوا بأنفسهم من المعاطب . ولم تكن اميركا في زمن هذا الفيلسوف قد اكتشفت بعد ، ولم يكن النساء المطوبات ببلايا الزمن قد أصبحن مبعث خطر على الرجال كما هن الآن

وعاد « ممنون » إلى منزله خجلاً ، مكسور الجناح ، منكس الرأس . وهنالك وَجَدَ دَعوَةً يدعوه بها مرسلها إلى مأدبة تضم بعض اصدقائه

قال : « اماذا ظللت في البيت منفرداً بنفسي ، فسوف تساورني ذكريات هذا الحادث المشين ، فلا استطيع أن آكل كسرة ، وما يدريني ، فلعلي أمرض ، فمن حسن

البصرة أن امضي الى اصدقائي الاعزاء، لعلّي أقضي في صحبتهم بعضاً من وقت الفراغ . سوف أنسى في عشرتهم الحلية البريئة ، تلك الغواية التي وقعت فيها صبيحة اليوم »

وعلى هذه الفكرة ذهب ليحضر الوليمة . وسرعان ما بان لاصدقائه انهُ مهموم ، يريد ان يستقوى بالشرب على طرد هموم تساوره ، وذكريات لا تذهب الا لتعاوده

« ان قليلاً من الخمر يُحتَسَى بهوادة وتؤدة ، لَقَمِين بأن يذهب الهم من قلوب الآلهة ومن قلوب البشر » — ذلك ما قام في نفس عنون الفيلسوف . واحتسى الخمر، وامعن في احتسائها ، حتى سكر وغلا في السكر . وبعد ذلك جاء دور اللعب

— « ان قليلاً من اللعب مع اصدقاء اوفياء مخلصين ، لمن اجل الهيّنات وقت الفراغ » — ولعب فخسر ، وخسر كل ما كان في كيسه ، وخسر اربعة اضعاف ما كان معهُ ، مقسماً بشرفه أغلظ الايمان انهُ سيدفع ما يخسر . وهنالك يقوم جدل على خطأ لا تجيزه شريعة القمار ، ويحمى وطيس الجدل ، وتقوم قيامة الكلام والأخذ والرد والجذب والدفع ، فيرميه احد اصدقائه الاوفياء المخلصين بعلبة من علب النرد فتصيب رأسه ، وتفقأ إحدى عينيه . ويحمل « عنون الفيلسوف » الى بيته سكران معدماً ، لا عقل في راسه ، ولا درهم في جيبه ، وبعين واحدة

حتى اذا قضى وقت خُمَاره نائماً يغط غطيط السكْر شد خناقه ، وبدأت سورة الخمر تتبخر من رأسه الحكيمة وذكر ما كان منه ، اسرع بخادمه فارسل به الى رئيس الخزينة في مدينة « نينوى » ليسحبهُ بعض المال ، عساه يقضي دينه ، دين الشرف ، الى اصدقائه الاوفياء المخلصين . فاذا عاد الخادم اخبره ان رئيس الخزينة قد اعلن إفلاسه صبيحة ذلك اليوم وانه وضح لاهل الحكم أنه مختلس محتال ، وانه بذلك اصبحت مائة اسرة في اشد حالات الفقر والعوز . فما وسع «عنون» الفيلسوف الا ان يحجب عينه المفقوءة بلفافة ، ويأخذ في جيبه عريضة دعوى ليتقدم بها الى الملك ، طالباً منه ان يقيم العدل بينه وبين المختلس المحتال . وما ان يدلف الى دار العدل في البلاط الملكي حتى يلقى عدداً من السيدات ، وقد ملكتهن هزة الفرح والسرور ، فرحن يدرن ممسكات بعضهن بأيدي بعض في حلقة ، وبأسرع ما يتصور العقل قفزاً ووثباً . وهنالك تقدم اليه أحداهن وكان له بها علاقة وتصيح في وجهه — « ما أبشع هذا المسخ المخيف » ! ثم تلوها اخرى وكانت به اكثر

معرفة من صاحبتها الاولى فتقول له — « بالله — أيها الفيلسوف عنون ! ارجو ان تكون بخير . وأسفاه ! كيف فقدت عينك يا عنون » — ثم تلتفت برشاقة وتوليه ظهرها ، وتبتعد عنه في غير اكتراث

هنالك لم يسع عنون الا ان ينتبذ بنفسه ركناً من الاركان ، بعيداً عن ان تأخذه فيه الاعين ، ويظل منتظراً ، حتى تتاح له فرصة يتراءى فيها على قدمي الملك ولقد أزف الوقت وأتيحت الفرصة : فقبل الارض ثلاث مرات ، وتقدم بكتابه في يده ، فتقبله الملك بقبول حسن ، وأمر أحد رجال حاشيته ان يتسلم منه الكتاب، فما كان من ذلك الرجل الا أن اتحى بعنون ناحية وقال له بخشونة وبذاءة :

« اسمع ياهذا ! أنت يا اعور ! يا من لا يملك الا عيناً واحدة ! لاشك في أنك كلب نبّاح مُزرٍ . ذلك بأنك تتقدّم الى الملك بكتابك ، في حين كان الواجب ان تتقدّم به اليّ . أضف الى ذلك أنك تطلب القصاص من مفلس امين شريف ، أحوطه بعنايتي وأظلله بحمايتي ، وهو فوق ذلك من اقرباء الوصيفة التي تقوم بخدمة حظيتي . عليك ان لا تتقدم خطوة اخرى في هذا الامر ، ايها الصديق الطيب ، هذا اذا اردت ان تفوز بالعين الاخرى التي بقيت في وجهك »

هذا عنون الفيلسوف . عنون الذي تخيل بين جدران حجرته الاربعة ان في مستطاعه أن يهجر النساء ، وان يقلع عن المائدة الخضراء وعن الشرب وعن الجدل والشجار ، وأقسم فوق كل هذا ان لا يطرق للمحاكم باباً . عنون هذا وفي رأسه كل هذه الاخيلة ، وفي فترة وجيزة ، لا تعدو أربع وعشرين ساعة استهوته امرأة، ثم سرقته ، ومن بعد ذلك سكر ولعب القمار وتشاجر ، وفقئت عينه ودخل المحكمة ، حيث أمتهن ، واهينت كرامته

ولقد أخذ عنون العجب، وملأ قلبه الهم والحزن، فقفل الى بيته غضبان اسفاً . وما ان تأهب لدخول البيت ، حتى دوهم بعدد من رجال الشرطة شرعوا ينقلون اثاث بيته ليباع وفاء لمطلوبات دائنيه . وتأخذ بتلابيبه الهموم ، فيسقط إعياء تحت شجرة على رصيف الشارع، وهنالك يقع بصره على تلك المرأة التي لقيها في صبحة الامس، تمشي الهوينا مع عمها العزيز . وما ان رأياه حتى اغربا في الضحك، واصبح الهم نشيرة الى الضمادة التي تحجب عينه المفقوءة

واقبل الليل بويلاته ، فهيأ عنون لنفسه فراشاً من القش والبوص بجوار جدار من جدار بيته ، وهوّم رأسه الناس ، فاخذ يغط غطيطاً . وبينما هو في غفوته ، اذ تجلى له ملك من ملائكة السماء ، خلل بالضياء مخفوف بالبهاء ، فهيأ بأجنحة ستة ، ولكنه بلا رجلين وبلا رأس ، وما يشبه من شيء : — « من أنت » ؟

فاجابه الملك — « انا شيطانك الطيب »

— « اذن فرد الي عيني وصحتي ومالي وعقلي »

ثم قص عليه عنون كيف انه فقد كل هذه الاشياء بين صبيحة يوم ومسائه . !

فاجابه الملك : « هذه احداث لن يقع مثلها في عالمنا الذي نعيش فيه »

— « واي العوالم تسكن » ؟

— « ان مأهلي يبعد عن الشمس خمسمائة مليون ميل ، في نجم صغير الى جانب الشعرى ، على انه يمكنك ان تراه من مكانك الذي انت فيه »

قال عنون — « انه لموطن جميل اخاذ ! حقق . ومما لاشك فيه انكم لاتعرفون فاتنات يأسرن المفتونين امثالي ، ولا اصدقاء اوفياء يسلبون ما في جيبه من المال ، ويفقأون احدى عينيه ، ولا نفسين محتالين ، ولا رجال حاشية يهزؤون به عندما يتقدم اليهم طالباً العدل والانصاف »

فاجابه ساكن النجم — « كلا . لانألف شيئاً من ذلك فانا لن نفتن بالنساء ، لأنهن لايوجدن حيث نسكن . ولن نتشاجر على الموائد الخضراء ، لانا لا نأكل ولا نشرب ، وليس عندنا مفلسون محتالون ، اذ ليس عندنا ذهب او فضة . وأعيننا لن تفقأ ، ذلك بان اجسادنا ليست كاجسادكم ورجال الحاشية لن يستطيعوا ان يسومونا خسفاً . ذلك بأنا جميعاً متساوون في عالمنا النقي البعيد »

قال عنون — « اتوسل اليك ياسيدي ان تخبرني : كيف تقطعون الوقت وتقتلون الزمن ، بغير نساء وبغير اكل او شرب » ؟

— « انما نقطع الوقت في مراقبة العوالم الاخرى التي يعهد الينا في تدبير امورها وما اتيت الى عالمك هذا الا لاهديه من روعك واسليك عما انت فيه من الغم »

تأوّه عنون وقال — « واأسفاه ! ولم لم تأت يوم امس لتكفيني الوقوع في الكثير مما وقعت فيه من المخازي ، وتمنع عني ما ترديت فيه من الاخطاء » ؟

فاجابهُ الكائن الساوي — « كنت مع اخيك حسن ، فانهُ لأحقُّ بالشفقة منك . فان صاحب الجلالة ملك جزر الهند ، الذي كان لاخيك حظوة الخدمة في بلاطه ، قد امر بان تفقأ عيناه الاثنتان ، جزاء هفوة هينة . وهو الآن في اعماق السجن ، وقد اثقلت يديه ورجليه الاصفاد »

— « انهُ لمن الصدف الحسنة ان يكون في اسرة من الاسر شيطان طيب مثلك . فيكون من أثره فيها ان يصبح احد الاخوين اعور ، والآخر اعمى . احدهما يتمطى على فراش من البوص والقش بجوار جدار ، والآخر يتلظى في غيابات السجن ! »

فاجابه الملك — « ان حظك سوف يتغير سريعاً . من الحق انك سوف لا تعطى عينك مرة اخرى ، ولكنك سوف تكون سيداً محظوظاً ، اذا لم يبدر في رأسك مرة اخرى انهُ من الممكن ان تكون فيلسوفاً تام الفلسفة » . — « امستحيل ذلك إذن » ؟

— « نعم مستحيل . كما يستحيل عليك ان تكون تام العقل . تام القوة . تام القدرة . تام السعادة . انا نحن بأنفسنا بعيدون عن ان نفكر في أن نكون كما اردت أنت ان تكون . ولكن هنالك عالم يمكن ان تتحقق فيه كل هذه الاشياء . ففي تلك العوالم العديدة التي يبلغ عددها مائة الف مليون عالم تخضع كل الاشياء لسنة التدرج . ففي العالم الثاني تجد ان الفلسفة والمتعة معاً ، اقل منهما في العالم الذي يسبقه في ترتيب التدرج . وهي اقل في الثالث منها في الثاني ، وهكذا ، حتى اذا بلغت العالم الاخير ، وجدت ان اهله جميعاً حمقى اغبياء »

قال ممنون — « اخشى ان تكون ارضنا هذه المكونة من طين وماء ، هي بذاتها مباءة المائة الف مليون من العوالم التي تشرفني لبلباقتك بالكلام عنها »

— « ليس الامر كما تقول تماماً ، وانما قولك قريب من الحق . ان كل شيء يجب أن يوضع حيث يجب ان يكون »

— « ولكني أفلا أنك أتخطئون اولئك الشعراء والفلاسفة الذين يلقون في روعنا دائماً ان كل شيء حسن ، وعلى اتم ما يكون في النظام » ؟

قال الملك « — لا . ليسوا على حق تماماً ، وانما يكونون على حق اذا ما نظروا في الاشياء من ناحية صلتها بنظام التدرج الذي يشمل قانون الكون كلهُ »

قال ممنون — « كلا . لن أؤمن لك ، حتى استرد عيني المفقودة »